يوميات المدى في القاهرة

يقولون أن السفر متعة وأنا أقول بأنه لوعة، نعم لوعة لنا نحن العراقيين الذي حبانا الله على امتداد التاريخ باحتلالات وغزوات وفتوحات لم نجن منها غير الخراب والدمار لبلد أقل ما يقال فيه أنه مهد الحضارات، فأين نحن من عالم يتسابق في الوصول إلى أعلى زقورات العالم بالتطور والرقي، وأنا أتسابق مهرولاً إلى الوراء المظلم بفضل بعض الساسة الذين لا يجيدون غير قيادة الوطن باتجاه المجهول، نعم وأنا أشاهد القاهرة، التفاتاتي صوب الحبيبة بغداد لم تنقطع بل تنهال عليّ كالمطر.. لأصرخ بكل وجعي.. حبيبتي يا فريسة النهر.. سيجرد الله الأرض من الفصول، أسدلي جفونك ولا تنتظري سواك.. حبيبتي.. امنحيني مسافات ابعد.. لأسعد خطواتي بدنو الأمل.. أو الأجل.. لا فرق كلاهما يتشابهان حين ينحني الشعر...

محلات خان الخليلي

تواشيح وأنغام بين حي الحسين وخان الخليلي

قبّة تفوح بعطر الإيمان.. والفيشاوي يتعبّق بدخان النارکيلة

□ القاهرة/ يوسف المحمداوي

القاهرة التي يقطنها ١٧ مليون نسمة، أي حوالي ربع سكان مصر، تنقسم إلى ثلاثة أحياء رئيسة بالنسبة للسائح، الأول هو القاهرة الإسلامية الذي يضم العديد من المتاحف والمساجد والقلاع الإسلامية، أما الثاني فهو القاهرة المسيحية، ويحتضن هذا المرفق الكنيسة المعلقة وبرج نابليون وكنائس عديدة، ككنيسة مارجرجس والقديسة بربارة، وكذلك المتحف القطبي، أما القاهرة الثالثة فهي الفرعونية والتي تضم مدينة اون التي تقع في شمال القاهرة، ومدينة منف عاصمة الفراعنة وأهمها آثارها أهرام خوفو/ وخفرع ومنقرع، وأبو الهول ومركب الشمس، أو ما يسمى بسفينة خوفو الذي تحدثنا عنه في الحلقة السابقة.

السلام على الحسين

واليوم يأخذني صديقي ودليلي الشاعر ماجد موجد باتجاه القاهرة الإسلامية وبالذات إلى حي الحسين الذي يقع فيه مسجد سيدنا الحسين بن علي عليه السلام، وسمّي الحي باسمه تيمّنا بابن بنت الرسول (ص) الذي يعتقد الناس بأنه يحوي رأس الإمام بعد استشهاده في موقعة كربلاء المشهورة، واختلفت الروايات بشأن الرأس الشريف، فمنها تقول إنه دفن في كربلاء، وروايات أخرى تقول إنه في المدينة، والبعض ذهب الى أنه مدفون في دمشق أثناء وصوله إلى يزيد بن معاوية في الشام والبعض يقول إنه دفن في مدينة الرقه بسوريا، ورواية أخرى تقول في مدينة عسقلان الفلسطينية، لكن المتعارف عليه في العراق هو أن الرأس دفن مع الجسد بعد عودة الإمام زين العابدين بن علي إلى كربلاء ليقوم بمراسيم الدفن في ما يسمى (مرد الروس)، وهي إحدى الشعائر التي يقوم بإحيائها المسلمون في العراق.

مسعود العمارتلي كان حاضراً

أما الدولة الفاطمية فقد قام بناؤها وقوتها على تقديس أهل البيت، وقد يكون بناء مسجد الإمام الحسين (ع) والقول بأن الرأس مدفونا هناك هو لإضفاء شرعية وجودها والقيام بتلك الشعائر، لذلك بنى المسجد كما يقول الشيخ حسين محمد وهو أحد سدنة المسجد في العهد الفاطمي سنة ١١٥٤ ميلادية، في عهد الوزير الصالح طلائع وتم العمل بإشرافه المباشر.

وأنت تتوجه إلى المكان تشعر وكأنك متجه إلى كربلاء، فالمطاعم تسبق الباب الرئيس للمسجد، وكذلك المقاهي والباعة المتجولون الذين ينتشرون في كل مكان، أوصاني صديقي ماجد أن لا أرد على أي بائع أو بائعة، لأن مجرد سؤالك عن سعر بضاعتهم، يرغموك على الشراء شئت أم أبيت.. جاء أحدهم وهو شاب لم يتجاوز الـ(١٥) عاما، وكان يبيع أقراصا لمطربين، وقارئي قرآن فقلت له هل لديك تسجيلات غنائية للمطرب (مسعود العمارتلي) رد عليّ متسائلاً (مين ده)؟.. قلت له مطرب عراقي قديم (أنت بتهزر معاي) قلت له.. لا وحياة النبي..

كنت أعرف جيداً بأنه لا يملك أشرطة للمرحوم (مسعود العمارتلي)، لأن شبابنا لا يعرفون من هو، فكيف بشاب مصري قد يكون سمع بكاظم الساهر أو سعدون جابر، لكن ليس من المعقول أنه يعرف (مسعود)، ولكني اتخذت ذلك الموقف لأثبت لصديقي ماجد بأني قادر على تجاوز ما حذرني منه..

مطعم نور المالكي

وعندما اتجهنا صوب الباب.. على اليسار استوقفتني لافتة خطت على أحد المطاعم وما أكثرها، مطعم نور المالكي قلت مع نفسي هل يمكن لرئيس وزرائنا أن يشتري مطعماً هناك والتفت الى ماجد مستفسراً، هل هنا قبيلة بني مالك أيضاً، ضحك وقال كلا يا يوسف أنه المذهب المالكي، وقلت مع نفسي بالطبع لا يمكن للمالكي أن يبني مطعما هناك لعدم تمكنه ماديا من ذلك، ولكن كما عرفناه طيلة حقبة حكمه الماضية والحالية بأنه قد يبني سيطرة أو سجنا أو مركزا جديدا للطب العدلي، أما مطعما فمن المستحيل.. وصلت الباب الممتلئ بالمتسولين وأول ما وقعت عليه عيناي عند الباب حديث الرسول الذي نردده دائما في العراق (حسين مني وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينا، حسين سبط من الأسباط)

ملابس ومقتنيات الرسول

خلعنا الأحذية وسلمناها للأمانات التي عند الباب، لتنعم العيون بروعة العمران وقدسية المكان، أعمدة من الرخام الأبيض تمتد على طول باحة المسجد، وبواقع خمسة أعمدة في العرض وضعفها في الطول، ويقع في منتصف المسجد، المحراب الذي يتوسطه منبرا من الخشب، وتبهرك السقوف والجدران الخضراء التي تملأ المسجد، فضلا عن الصور التاريخية التي تؤرشف ملابس ومقتنيات الرسول (ص) وآل بيته الأطهار، فضلا عن ثوب زفاف سيدتنا فاطمة (ع) وعباءتها..

وقرب المنبر وعلى يساره مباشرة هناك بابان للدخول إلى القبة التي دفن فيها الرأس، وهناك باب آخر يؤدي إلى غرفة الآثار التي بنيت عام ١٨٩٣ ميلادي، والتي أودع فيها جميع الآثار النبوية، وتوجد داخل المسجد أكبر ثريا في العالم العربي حيث يصل وزنها إلى خمسة أطنان من الكريستال المطعّم بالذهب الخالص معلّقة بواسطة موصلات من الفضة الخالصة، وعن كيفية وصول رأس الإمام الحسين (ع) إلى هذا المكان، يقول الشيخ محمود وهو أحد سدنة المسجد: إن الرواية المؤكدة هي أن رأس الحسين هنا، وذلك عند اندلاع الحروب الصليبية خشي أحد أمراء الدولة الفاطمية على الرأس الشريف فأرسل من يجلبه من مدينة عسقلان في فلسطين وقام بدفنه في هذا المكان.. ويضيف الشيخ أن الإمام الحسين هو حفيد سيدنا محمد (ص) من ابنته فاطمة (ع) ولد في المدينة في العام الرابع من الهجرة ونشأ في بيت النبوة، وبعد أن أرسلوا بطلبه أهل الكوفة وبايعوه بالخلافة سرعان ما انقلبوا عليه واستشهد هو وآل بيته وأصحابه في العاشر من محرم عام ٦١ هجرية وتم إحضار رأسه إلى القاهرة عام ١١٥٤ م.

من الدولة الفاطمية إلى الملك فاروق

يقول الشيخ.. لقد توالت الكثير من الحقب الزمنية التي بدأ فيها بناء وعمران المسجد الحسيني فابتدأ البناء من زمن الدولة الفاطمية حتى إصلاحات الملك فاروق عام ١٩٣٩ م الذي قام بإصلاح أرضية القبّة وفرشها بالرخام، فتاريخ بناء المشهد هو عام ٥٤٩ هجرية، أما المئذنة فقد تم بناؤها عام ٦٤٣ هجرية، في أواخر العصر الأموي.

وقام بعد ذلك الأمير عبد الرحمن كتمندا بتجديد ما يعلو المئذنة عام ١١٧٥ م وكذلك قيامه بتجديد المشهد والقبّة التي تعلو الضريح ،التي نقش داخلها برسوم من الذهب، وأمر الخديوي إسماعيل حين تولى الحكم في مصر بتجديد المسجد واستغرقت عملية الترميم والتوسيع عشر سنوات، وانتهى البناء فيه عام ١٢٩٠ هجرية، باستثناء المئذنة التي تم بناؤها عام ١٢٩٥ هجرية، أما الملك فاروق أمر في عام ١٩٣٩ م بإصلاح أرضية القبة وفرشها بالرخام.

٥٠٠ عقد قران داخل المسجد

أما الوصف الحالي للمسجد فهو مبني من الحجر الأحمر على الطراز الغوطي، فيما بنيت منارته على نمط المآذن العثمانية، فهي اسطوانية الشكل، ولها دورتان تنتهي بمخروط، وأقصد بالدورتين بأنها تدور حول نفسها ،كما هو وضع ملوية سامراء أو شكل مئذنة جامع ابن طولون التي اتخذت من ملويتنا شكلا لها.

وللمشهد الحسيني ثلاثة أبواب، واحد في الغرب، والثاني هو الرئيس ويسمى بالباب القبلي، والثالث بالجهة البحرية ويؤدي إلى مكان الوضوء.

يقول الشيخ وهو يرتدي الجلبابه المصرية والعمامة الملفوفة على الطريقة المصرية..

أن المسجد يشهد يوميا (٥٠٠) حالة عقد قران، ويتضاعف هذا العدد إلى الضعف في يومي الخميس والجمعة لكون المسلمون يتباركون أن يعقد قرانهم في هذا الموقع الذي يحتضن رأس حفيد رسولنا العظيم.

وسط الحضرة توالت صيحات المدد

سألت الشيخ هل من يعقدون القران داخل المسجد الحسيني من الشيعة أو السنة رد عليّ الشيخ ضاحكا: هذا عندكم فقط، فنحن في مصر لا فرق لدينا ما بين السنة والشيعة، كلنا نتوجه إلى القبلة وأشار بيده إلى المصلين قائلاً: انظر إليهم هناك من يصلي وهو سابل اليدين، وآخر يقوم بتكتيفها، فلا يوجد فرق ما دامت سرائرهم نقية ومبتغاهم مرضاة الله وتأدية واجباتهم وفروض دينهم الحنيف، وتزامن ذهابنا مع وجود ما يعرف بـ (الحضرة) وهي تعقد كل خميس لكن رغم أن ذهابنا كان يوم الجمعة إلى هناك الا انها كانت موجودة لأن هناك اليوم الثالث لأحد المتوفين وعقدت من أجله تلك الجلسة أو (الحضرة)، جلست بينهم وكان هناك متصدر للقراءة يجلس على الأرض شأنه شأن (الروزخون) عندنا ولكنه يرتدي الزي المصري المعروف بالجلبية وعمامة ملفوفة على الطريقة المصرية ويحيطه من الجانبين مجموعة من الشيوخ، وهو يستعرض مسيرة الإمام الحسين (ع) وبعد أن أنهى القراءة بسورة الفاتحة توجه من مكان جلوسه نحو السور الفضي المحيط بالقبّة ليصرخ بأعلى صوته..

مدد يا رسول الله

مدد.. يا بو علي

مدد.. مدد.. يا حسين

يا بو زين العابدين..

فرح بانتصار الحق على الباطل

ونحن نردد معه.. مدد يا رسول الله، وهو ينشدها بطريقة التواشيح ونحن نقوم بترديد ما يقول، كنت أراهم يتمايلون فأتمايل ،يصفقون فاصفق، والنساء بالجانب الآخر تطلق الزغاريد بين الحين والآخر.

بعد انتهاء (الحضرة) توجهت إلى احدهم وقلت له: لماذا تزغرد النساء وانتم أراكم تتمايلون وتصفقون.. رد عليّ قائلاً: ولماذا لا نفرح بانتصار الحق على الباطل، لقد انتصر الحسين على الرغم من استشهاده على يزيد، وهذا ما يدعونا للفرح بانتصار الإسلام الحقيقي على من يدعون الإسلام من أمراء الكفر والإلحاد.

حان آذان المغرب فاصطفت الجموع لتصلي إلى ربها، هذا مُسبل اليدين ولصيقه تكتف، والاثنان توجها لنفس القبلة التفت صوب بلدي، وأنا أقول: ألم ترَ ألا ترى أيها الشعب الذي مزقتك الفتنة لماذا نحن نختلف عن الآخرين، هكذا هم يستذكرون سيد الأحرار وشهيد الحق، يمجدونه بالفرح لأنه انتصر.

بدلات الرقص تُباع في حي الحسين

خرجت من المسجد لأجد نفسي أمام مكتبة الحسين في بابه وفيها جميع ما ذكره الرواة والعلماء وشيوخ الدين عن الإمام، فأشار لي بكتاب يروي قصة الحسين (ع)، فقلت له شكراً يا أفندم، فنحن لدينا النسخة الأصلية من مرقد الإمام (ع) وغير مشكوك فيها، وقد حفظنا القصة منذ الطفولة.

مقهى الفيشاوي

ونحن نسير باتجاه خان الخليلي الذي يجاور المسجد تماماً توجد هناك أسواق عدة تابعة لحي الحسين، فهناك سوق العطارين، والتوابل الهندية، والنحاسين، الصابون، تجد كذلك المحال المنتشرة على طول الحي.. والتي تباع فيها الإكسسوارات المختلفة ذات الأشكال الإسلامية والفرعونية، كمحال بيع ورق البردي والمنقوش بالرسومات الدينية والفرعونية، وكذلك التحف والعطور المختلفة المنشأ، والملاحظ أن هناك بعض المحال التي تباع فيها بدلات الرقص الشرقي تشهد إقبالاً من المصريين والأجانب على حد سواء.

خان الخليلي على أنقاض مقبرة الفاطميين

تركنا حي الحسين واتجهنا صوب خان الخليلي الذي يعد من أشهر الأسواق ليس على مستوى مصر فقط، بل وفي الوطن العربي وإفريقيا، ولم تأت شهرة الخليلي من المسلسل العربي المعروف ولا من رواية نجيب محفوظ الذي استوحى العديد من صور ذلك الخان في أشهر مقاهيه (الفيشاوي)، بل جاءت شهرته لقدمه التاريخي وتنوع بضاعته، فقد انشأ السوق كبير تجار مصر في عهد السلطان برقوق عام ١٤٠٠ ميلادي، وقد بناه التاجر جهاركس الخليلي على أنقاض مقبرة الدولة الفاطمية والتي كانت تسمى (تربة الزعفران)، وهو ضمن (٤٠٠) سوق كانت منتشرة في أحياء القاهرة أيام حكم المماليك.

لكن السلطان الغوري قام بهدم الخان في عام ١٥١١ م وانشأ مكانه وكالات ومحال جديدة يدخل إليها الزائر من ثلاث بوابات،لكن لم يمض وقت حتى تم هدم تلك الوكالات مجدداً إلى ان تم بناؤها مجدداً بالشكل الذي هو عليه الآن، والملفت لنظر الزائر في الخام هو أن كل محل ارضي يقع فوقه أما مخزن لبضاعة المحل أو شقة للسكن.

التمائم الفرعونية وصناعة البخور

وتعرض البضائع في الخان بنفس الأسلوب الذي تتميز به أسواق القاهرة القديمة فلا يجد المتبضع حاجزاً بين المحال المتلاصقة بالمواد المعروضة، وما يميز المادة المباعة ومحال الخان هو أنها تحتوي على جميع ما يخطر على البال.. فهناك البضاعات اليدوية، مثل السجاد والسبح والكريستال والحلي الذهبية والتمائم الفرعونية، وصناعة البخور والأعشاب الطبيعية، وكذلك صناعة النارجيلة والفوانيس التي تشتهر صناعتها في شهر رمضان، لكونها عادة يمارسونها في ذلك الشهر وليس لانقطاع الكهرباء في مصر،فلم الحظ طيلة وجودي فيها أي انقطاع للتيار الكهربائي،فلماذا يا سادتي قادة البلد، العراق بكل إمكاناته المادية التي تعادل أضعاف أضعاف ثروات مصر، وهو محروم من الكهرباء منذ التغيير إلى يومنا هذا، هل العلة في المادة أم في الضمائر أم في العقول.. لطالما سألنا ويأتينا الجواب.. انه تم اكتشاف عقود وهمية وابلغ عقوبة حصل عليها أي مسؤول اعتقد هي الهروب خارج العراق أو الاستقالة مقابل حصوله على المرتب التقاعدي المغري والعفو عما سلف..

نابليون في مقهى الفيشاوي

الحديث عن حي الحسين أو خان الخليلي طويل بطول بقائهما ومقاومتهما الزمن، وعميق بعمق الجرح الذي احمله.. فلا غرابة وأنت تخرج من مسجد الإمام وترى عند الباب عشرات الأجانب وبأزياء مختلفة، نساء بنصف ملابس يتجهن بمفاتنهن الى مدخل الجامع من اجل التصوير، أو في المطاعم المنتشرة عند مدخل الجامع، ومن يذهب إلى القاهرة لا بد أن يزور مقهى الفيشاوي ويسترق سمع الجدران التي جلس بقربها كبار الملوك والساسة والمثقفين والمفكرين، المقهى الذي يكتظ بالزائرين العرب الأجانب ،من الصعوبة ان تحصل فيه على كرسي للجلوس بسهولة، فالجلوس به من غير النارجيلة أو الشاي المطعّم بالنعناع يعد أمراً غريباً، جلسنا فيه وطلبنا النرجيلة وتحدثت مع احد عمّاله واسمه عمو سيد ليقول لي: إن المقهى اتخذه احد فنوات الجمالية في القرن الثامن عشر وهو الفتوه فهمي الفيشاوي مقراً له لإدارة شؤون المنطقة فيه، ومن ذلك الوقت والمقهى يحظى بشهرة عالمية، حيث زاره الكثير من الساسة، مثل إمبراطورة فرنسا (أوجيني) وكذلك نابليون بونابرت والخديوي عباس، وجمال عبد الناصر، وأنور السادات وسعد زغلول، والكثير من المفكرين والمثقفين والفنانين،منهم على سبيل المثال لا الحصر..جمال الدين الأفغاني، الشيخ محمد عبد، عبد الله النديم،أم كلثوم، سيد درويش،سلامة حجازي،حافظ إبراهيم،زكريا احمد، بيرم التونسي، اغلب الروائيين المصريين والروائي العربي الكبير نجيب محفوظ الذي نجد احد أركان المقهى قد سجل باسمه.

المقهى مقراً للحركات الطلابية

ويذكر عمو سيد ا أن المقهى أيام الاحتلال الانكليزي كان مقراً للحركات الطلابية ضد الاحتلال ويجتمعون فيه تحت ذريعة شرب الشاي بالنعناع الذي يتميز المقهى بتقديمه، للمقهى أربعة أبواب.. اثنان قريبان من إحدى ساحات منطقة الحسين، والآخران يطلان على أروقة خان الخليلي، وعلى الواجهة الرئيسة للمقهى تجد هناك عدة مرايا كبيرة بيضاوية الشكل وفي داخله عدد كبير من اللوحات والبوترينات للعديد من المفكرين والساسة المصريين.

ودّعت المقهى مستذكراً مقاهينا وما فعله الدهر والإرهاب فيها، تذكرت مقهى الشابندر وأنا اردد مع النفس أغنية أم كلثوم..

أغدا ألقاك.. أيا خوفي من غدي...

المسجد يشهد يوميا (٥٠٠) حالة عقد قران

زار المقهى نابليون والخديوي عباس وجمال عبد الناصر

صور تأريخية تؤرشف ملابس ومقتنيات الرسول (ص)

المدى داخل المشهد الحسيني